معـــارك العراق [1]

غزو البصرة والزبير :

كان أول عمل حربي قام به سعود بن عبد العزيز ، بعـــد مبايعته بالإمامة : غزو العراق .

ويقول بعض المؤرخين انه إنما فعل ذلك ثأراً لأبيه ، فقد كان قاتله عراقياً ، وكان المحرّض على القتل والي العراق !

وأكبر الظن أن غزو العراق كان متعدد الأغراض :

١ — ولعل أعظم تلك الأغراض إظهار القوة: لإرهاب ولاة العراق وصرفهم عن التفكير في استرداد الأحساء أو الاستيلاء على بعض المناطق التي انضوت تحت راية التوحيد ، وحملهم على النظر لأنفسهم والاكتفاء بسلامة بلادهم !

٢ — وهناك الرغبة في التوسع وبسط السلطان ..

٣ — وقد تكون هناك أيضاً الحاجة الملحّة الى المال والغذاء ، وهي أشد ما تكون ظهوراً في سنوات القحط والغلاء .

---

(١) يلاحظ أنه لم تقع معارك حربية خطيرة بين البلاد السعودية والعراق في عهد الإمام سعود ، وإنما كان ذلك في عهد أبيه وبقيادة سعود أيضاً ..

أما غارات سعود في العراق ، بعد توليه الإمامة ، فكانت محدودة جداً ..

٤ - أما الثأر لمقتل الإمام عبد العزيز بن محمد ، فقد يكون أضعف الحوافز الى الغزو ، والله أعلم .

غزو أطراف البصرة والزبير :

في آخر عام ١٢١٨ هـ . غزا سعود أطراف البصرة ، وقتل رجاله عدداً من أهلها وأخذوا كثيراً من أموالها ، ولكنهم عجزوا عن الاستيلاء على المدينة ، فانصرفوا عنها الى « الزبير » ، وحاصروها بضعة أيام فلم يستطيعوا اقتحامها ، فحصدوا زروع القرى المحيطة بها ، وهدموا ما فيها من قباب ومشاهد .

ويقول ابن بشر انهم هدموا قصر « الدريهمية » ، مشرب أهل الزبير أيضاً ، بينما يقرر مؤرخون كثيرون أن هـــذا البرج تهدم قضاءً وقدراً بانفجار ذخيرة كانت فيه !

رواية كورانسيز :

ويقول المؤرخ الفرنسي كورانسيز : إن أول شيء عمله سعود ، بعـد مصرع أبيه ، هو الثأر له ، وكان يتهم علي باشا والي بغداد بأن له ضلعاً في الحادث وأنه المحرض على القتل ، لذلك سار إلى بغداد ، واكتسح في طريقه بعض الضواحي.

وفي تلك الأيام وصل بغداد ، قادماً من الدرعية ، الشيخ فارس الجربا، وكان اعتنق الدعوة السلفية « الوهابية » ، وهو من زعماء العشائر الشمرية المقيمة قرب (الحلة) ، فاستدعاه علي باشا وأمره بمحاربة « الوهابيين » ، ليثبت للناس أن الوهابيين يتقاتلون فيما بينهم ، ولكنه لم يكن مطمئناً تماماً اليه ، فلحق به على رأس قوة كبيرة ، ولما رأى المقاتلون النجديون ، الزاحفون صوب بغداد ،كثرة أعدائهم ، انسحبوا دون قتال ، وأدرك (سعود) أن احتلال بغداد مطلب عسير ، وراء قدرته ، فقرر الهجوم على بلدان عراقية أخرى أقرب اليه وأسهل تناولاً عليه ، وهكذا زحف إلى البصرة بجيشه المؤلف من اثنى عشر ألف مقاتل فقاومته البصرة مقاومة شديدة ، فتركها وسار بجنوده ليلاً إلى الزبير ، ليدخلها فجأة وعلى حين غفلة من أهلها - على عـــادته في حروبه - ولكن راعياً رأى

طلائع الوهابيين عند الفجر فأخبر أهل البلدة فتحصنوا وراء اسوار الطين الغليظ فحاصرهم الوهابيون أسبوعاً ولم يستطيعوا تحقيق أي تقدم ..

ثم خدم الحظ الوهابيين آخر الأمر بانفجار وقع في قصر الزبير – الدريهمية – ومع ذلك لم يسهل عليهم أمر الدخول إلى البلدة ،فتركوها، وعادوا مرة أخرى إلى غزو البصرة ، فلما امتنعت عليهم ، انسحبوا إلى بلادهم » .

رواية الدليل :

ويقول (دليل الخليج الفارسي) إن الجيش الوهابي جاء إلى ضواحي الزبير عام ١٨٠٤ م.وأسر شيخ عشيرة المنتفق لحمل ابنه، حاكم الزبير، على الإستسلام، فلم يؤثر ذلك في المقاومة الباسلة التي قام بها رجال الزبير لصدّ المهاجمين عن بلدتهم ..

ويبدو أن انفجاراً حدث في برج مقام على نبع ماء يستقي منه أهل الزبير أدّى إلى تدمير البرج ومقتل حاميته .

رواية لمع الشهاب :

يزعم مؤلف « اللمع » إن أهل الكويت ، لما سمعوا بعزم سعود على غزو البصرة ، أرسلوا الى متسلم البصرة وأعيانها يحذرونهم من غزو سعود لهم فجأة : « فما وصلت الخشب – أي المراكب – التي أرسلها أهل الكويت ، الا وقد نزل سعود حول الزبير ، وتبين الحال لأهل البصرة » .

ويردف المؤلف بعد ذلك أن سعود شرب من ماء الدريهمية بعد تغلبه على حماتها وسار الى الزبير فلم ينَلْ منها شيئاً ثم تركها وسار الى البصرة ، فلم يأتِ البصرة نفسها وإنما جاء القرى الجنوبية، وكان لجميع قرى البصرة سور مستطيل من طرف آخر النخيل من جهة القبلة .. حتى يقع على البحر .. وهذا السور أحدثه عبد الله آغا لما كان متسلماً البصرة .. وبنى فيه بروجاً .. وحفر خلفه خندقاً .. وذلك لأنه لما قوي أمر سعود في البر ، خاف عبد الله أن يغزو قوم سعود أطراف البصرة .. ففعل ذلك ، وأمر أهل كل بلد أن يحرسوا هذا السور

من قبلهم على دوام الأيام .. وقد أقــام سعود (يدمـّر السور المذكور بالبندق ، ويحمل على بعض المواضع ولا يدرك شيئاً ، ولم يخرج لحربه أحـد من البصرة ، وعربها – أعني المنتفق – لم يحضروا تلك الأيام فيها ، لأنـه أول أيام الصيف ، وشيخهم حمود لم يحب مقاتلة سعود ، وإلا كان يمكنه ذلك ، لكنه أراد أن يهين أهل البصرة حتى يعرفوا له قدراً) .. وقد همّ سعود بالتراجع عن السور ، لولا أن رجلاً أتاه ودلـّه على ثلم في السور ، فأمر سعود عسكره بالدخول من هناك ، فدخلوا وانتشروا في قرى البصرة .

رواية ابن بشر :

وهذه رواية ابن بشر للغزوة :

(في هـــذه السنة – ١٢١٨ – كانت غزوة البصرة وهدم قصر الدريهمية مشرب أهل الزبير وقتل من كان فيه .. وذلك ان سعود لما سار من الدرعية واستلحق جميع رعاياه من البـادي والحاضر ، نهض بجيوشه المنصورة والخيل العتاق المشهورة وقصد ناحية الشمال حتى نزل القرية المعروفة « بالتنومة » عنـد القصيم ، فعيّد فيها عيد النحر ونحر ضحاياه بها ، ثم أرخص لغزوان عربان الشمال من الظفير ، وذكر لهم أنه يريد الرجوع والقفول الى وطنه وكان قصده بذلك أن يخبروا أهل البصرة والزبير ومَن في جهتهم إذا رجعوا اليهم أنه قفل حتى يبغتهم من حيث لا يعلمون . وكان من عـادته إذا أراد غزو الشمال قصد جهـة الجنوب او الشرق او الغرب ثم رجع لما يريد وبالعكس ، وإذا كان يريد جهة من تلك الجهات ورّى بغيرها ..

فلما رحل عنه غزوان بوادي الشمال من التنومة ، رحل منها وقصد الدرعية نحو يوم او يومين، فوصل اولئك البوادي وأخبروا من في جهتهم بقفوله، ثم ان سعوداً رجع عادياً الى البصرة، فلما أتى قربها وافق كتيبة خيل للمنتفق رئيسهم منصور بن ثامر ، فأغارت عليهم خيل المسلمين وقتلوا منهم قتلى وأُخذ منصور أسيراً ، فأراد سعود أن يضرب عنقه ، ثم منّ عليه وعفا عنه ، فأقام عنده في الدرعية نحو أربع سنين ثم أذن له بالرجوع الى أهله .

ثم نزل سعود على الجامع المعروف قرب الزبير ، فنهضت جموع المسلمين الى البصرة ، فدهموا جنوبها ، وقتلوا من أهلها قتلى كثيرة واحتصروا أهلهـــا في وسط الحلة .

ثم رجعت تلك الجموع وحاصروا أهل الزبير وهدموا جميع القباب والمشاهد التي خارج سور البلد وضعت على القبور ، وقبة الحسن وقبة طلحة ، ولم يبقوا لها أثراً .

.. ثم ان سعود أمر المسلمين أن يحشدوا على قصر الدريهمية ، فهدموه وقتلوا أهله .

فلما كان وقت غروب الشمس أمر سعود مناديه ينـادي أن يثوّر كل رجل من المسلمين بندقة ، فثوّروها دفعة واحدة . قال لي رجل من أهل الزبير : لما ثارت البنادق شبّت النار في الأرض والجو وأظلمت السماء ورجفت الأرض بأهلها وانزعج أهل الزبير انزعاجاً عظيماً وصعد الناس في رؤوس السطوح ووقع فيهم الضجيج وأسقط بعض الحوامل . فأقام محاصرهم نحو اثني عشر يوماً حصد جميع زروعهم وقفل راجعاً الى وطنه .)

سنة ١٢١٩ هـ .

نيـــات .. غزو !

العراقيون ينوون غزو الدرعية .. ولا يفعلون :

وسعود ينوي غزو العراق .. ولا يفعل :

ذكر مؤلف « دوحة الوزراء » ، في وقائع سنة ١٢١٩ هـ . أن علي باشا غادر بغداد في ١٩ شعبان عن طريق الحلة ، ولما بلغ قرية النبي أيوب ، ألّف (فرقة من العساكر النظامية وسيّرها الى جبل شمر ، بقيادة ابن اخته أمير لواء إربيل سليمان بك ، فاصطدم هذا بجموع الوهابيين وشردهم واستولى على مغانم كثيرة منهم ، وكرّ راجعاً .. وفي رجوعه أصابته عدة كوارث بسبب العطش وحرارة الهواء ومشقة السفر وأصبحوا بحالة يرثى لها ، وقـد فقد بعض أفراد الحملة بصره ، وبعضهم اختلّ عقله ..) .

لم يشر ابن بشر في تاريخه إلى هذه الحملة الخاسرة ، ولم يبين لنا مؤلف الدوحة أين كان موقعها .. ولكننا وجدنا في « دليل الخليج الفارسي » لرومر ، وصفاً موجزاً لها ، يضعها في « اطارها » الصحيح ، فقد كانت في حقيقتها « مسرحية » دون « كيخوتية » تدعو إلى السخر والإحتقار ، قال الدليل :

(أراد والي بغداد علي باشا الخلاص من الوهابيين ، فسار من بغـــداد في ٤ تشرين الثاني ١٨٠٤ م . إلى الحلة ، وكان معه مستشاره العربي « فارس الجربا » فأقام مع جيشه في الحلة مدة طويلة لا يبدي حراكاً .. ثم انفصلت عنه كتيبة مؤلفـة من ٤٠٠ فارس ، وعبرت الصحراء — كطليعة — لتنازل الوهابيين .. ولكنها ، بدلا من أن تفعل ذلك ، ذهبت إلى قضاء « السماوة » في العراق ، وكان فيها عدد من السكان يعتنقون الدعوة الوهابية ، فأكرههم رجال الكتيبة على نبذها .. وهنا انتهت مهمة هذه الكتيبة) !..

ويضيف الدليل أن الإمام سعود ، لما علم بما فعله أنصاره ، من سكان سماوة ، أرسل يتهددهم ، فهربوا إلى بغداد خوفاً من انتقامه !

سعود ينوي غزو العراق .. فيغزو الظفير !

يقول ابن بشر إن سعود أراد غزو العراق عام ١٢١٩ هـ . ، فاجتاز ببوادي الظفير وهم في الدهناء عند لينة ، الماء المعروف ، فأمرهم بالغزو معه ، فلم تطعه سوى شرذمة صغيرة .. فغضب عليهم وقتل منهم عدداً كبيراً ، وأخذ جميع أموالهم من الإبل والغنم والسلاح والخيل والحلل والأمتاع والأزواد ، ورحل إلى بلد الزلفي يقسم الغنائم .. وأخر غزو العراق إلى العام القادم [1] ..

---

(١) يمدح ابن سند عشائر الظفير ، ويقول فيهم : « إنهم أعراب من بادية نجد ، يشملهم هذا الاسم مع أن أصلهم من قبائل متفرقة اجتمعوا ، تحالفوا وتسموا بهذا الاسم ، ولكن رؤساءهم وكبراءهم والمسموعة الكلمة فيهم آل سويط وهم من بني سليم وهم من بين سائر العرب مشهورون بالكرم والنجدة والنخوة والشجاعة ، وقيل : إذا كنت من تميم ففاخر بحنظلة وكاثر بسعد وحارب بعمرو ، وإذا كنت من قيس ففاخر بغطفان وكاثر بهوازن وحارب بسليم .

سنة ١٢٢٠ هـ .

غزو النجف والسماوة والبصرة والزبير :

في سنة ١٢٢٠ هـ . – ١٨٠٦ م . غزا سعود :

١ – **النجف**، فلم يقدر على اختراق أسوارها، وانسحب بعد رمي ومناوشة بينه وبين أهلها . ويقول ابن بشر ان سعود فرّق المهاجمين على بلد المشهد من كل جهة (وأمرهم أن يتسوّروا الجدار على أهله ، فلما قربوا منه فإذا دونه خندق عريض عميق فلم يقدروا على الوصول اليه ، وجرى بينهم وبينه مناوشة وقتال ورمي من السور والبرج ، فقتل من المسلمين عدة قتلى ، فرجعوا عنه .

ثم رحل سعود فانحاز على الزملات من عربان غزية فأخذ مواشيهم، ثم ورد الهندية المعروفة ، ثم اجتاز بحلل الخزاعل ، وجرى بينهم وبينه مناوشة قتال وطراد خيل .)

٢ – **السماوة** ، وقد حاصرها ، وخرب زروعها ودخل رجاله ضواحيها وأخذوا شيئاً كثيراً من أموالها .

وجاء في دليل الخليج الفارسي أن عبد الله بن سعود – وليس سعود – هو الذي غزا النجف والسماوة ، وكان غزوه للنجف ليلاً وفجأة ، واستطاع مقاتلته دخول البلدة بتسلقهم السلالم وتدلّيهم من فوق الأسوار ، ولكن أهالي النجف اضطرُّوهم الى الخروج من بلدتهم ، وأما أهل السماوة فكان بينهم وبين المهاجمين قتال دون البلدة واضطر المهاجمون الى التقهقر .

٣ – **البصرة والزبير** ، ولكنه عجز عن اقتحامها فعاد الى الدرعية .

ويقول ابن الغملاس ان سعود بن عبد العزيز هجم سنة ١٢٢٠ هـ . بجموع كثيرة على البصرة (وكان المتسلم في البصرة ابراهيم آغا ، فاتفق مع أهالي البصرة وقابلوا الوهابيين ودافعوهم أشد الدفاع ، ثم أمدّهم شيخ المنتفق حمود بن ثامر بستة آلاف فارس ، فرجع الوهابيون ، بعد أن أحرقوا أكثر القرى) .

ويقول مؤلف دوحة الوزراء ان والي بغداد علي باشا ، لما سمع بقرب قدوم ابن سعود نحو العراق (ونظراً لكثرة تحرشات الوهابيين على أطراف المدن ..

ألف فرقة من الأهلين وسار الى الحلة .. وهناك أرسل عيونه يتسقطون أخبار الوهابيين ، فلم يجدوا شيئاً ، فعاد الوزير الى بغداد) .

ويقول كورانسيز ان القنصل الانكليزي في بغداد طلب من الوالي السماح له ببناء حصن للبريطانيين في البصرة ، خوفاً من هجوم وهابي مقبل ،فأذن له بذلك ، فاستقدم عمالاً من الهند وبنوا الحصن .

سبب غزو سعود للعراق :

يقول « مانجان » ان سعود أرسل مندوباً الى علي باشا والي بغداد ، يؤكد له حرصه على العيش بسلام معه ، فاستقبل علي باشا المندوب بجفاء وأعاده دون جواب مكتوب ، وقال له انه آتٍ الى الدرعية للحساب والعقاب ..

ولما عاد المندوب الى الدرعية وأبلغ سعود بما حدث له ، جاء سعود الى العراق متحدياً ، وهجم على بلدان وقرى كثيرة وقتل وخرب .. ثم عاد .

وقد كتب اليه والي بغداد رسالة يقول فيها : إنك تحارب ، فتسلب وتهرب ، وهذا شأن العربان وليس شأن الملوك . وسآتيك بنفسي الى الدرعية ، بلد مسيلمة الكذاب !..

فأجابه سعود : تقول إننا نحارب ثم نهرب .. ولكننا بقينا شهراً ننتظرك فلم تأتِ . وتقول إنني عربي ، فاعلم أن العربي الحر خير من مملوك مثلك ، اشتراه سليمان باشا بثلاثمائة قرش . وتقول إن بلادنا موطن مسيلمة ، فبلادك كانت مقرّ عبادة الأوثان وكان أهلها يعبدون النيران ،ولكن الأرض يسكنها البرّ والفاجر وإنما يحاسب الله العباد لا البلاد .. وأخيراً .. نحن بانتظارك لنهزمك كما هزمناك في الأحساء ..

سنة ١٢٢٣ هـ .

غزو عثاثة والبصرة والزبير

يقول ابن بشر ان سعود سار في جمادى الأولى من عام ١٢٢٣ بالجيوش من الحاضرة والبادية وتوجه (ناحية العراق ، فقصد أهل بلد الحسين فوجدهم محصنين بلدهم بسور عظيم وجنود جمعوها .. فرحل عنها ونزل على بلد « عثـــاثا » ..

فهرب أهلها في رؤوس الجبال واستولى على بلدهم ثم أرسل اليهم وأعطاهم الأمان ومنّ عليهم ببلدهم وما فيها ، وأخذ جميع ما عندهم من الخيل ، ذكر لي انه مائة فرس ..

ثم رحل منها وقصد « الجرة » وناوش المنتفق بقتال ، وحصل مجاولة خيل ، قتل فيها من المنتفق سلطان بن حمود بن ثامر .

ثم سار إلى البصرة ونزل عندها ، وسار المسلمون على جنوبها ونهبوا فيه وقتلوا قتلى .

ثم سار منها ونزل قبالة « الزبير » ، ثم رحل منه إلى وطنه) .

رواية الدليل :

وجاء في دليل الخليج الفارسي ان قوة وهابية ظهرت بالقرب من كربلاء ، ثم اتجهت إلى واحة عثاثا واقتحمت الهندية ، ثم وصلت إلى عين سعيد ، قرب السماوة ، فخرج سليمان باشا ، والي بغداد الجديد مسرعاً للقاء الوهابيين وقاتلهم واضطرهم الى الإنسحاب [١] .

وقد أمر سليمان باشا بقتل زعيم عثاثا الذي اعتنق الوهابية ، ثم عاد الى بغداد ودخلها في موكب المنتصر الظافر .

ويقول موسيل ان الباشا لم يكتف بقتل زعيم عثاثا ، فأمر بذبح الوهابيين من سكان عثاثا أيضاً .

وتقول مجلة « حوليات الأسفار » ان سعود أرسل إلى أهل بغداد يحرضهم على رفع النير العثماني عن أعناقهم ، فأزعج ذلك سليمان باشا وجعله يسرع في تقوية البلدان والمراكز التي يخشى عليها من هجوم وهابي وفي مقدمتها مشهد الحسين والحلة .

---

(١) جاء في الدليل أيضاً أنه أشيع في بغداد قبل عودة الباشا ان جيشاً وهابياً عظيماً يسير إلى بغداد فعم الذعر وأغلقت الأسواق وحمل التجار الأسلحة للمقاومة وتعزيز حامية البلد .. ثم ظهر بطلان النبأ ..

وتقدر المجلة عدد الجنود الذين كانوا مع سعود في غزواته إلى العراق عام ١٨٠٨ م . = ١١٢٣ هـ . بإثني عشر ألف مقاتل .

حملات عبد الله بن سعود على العراق في عهد أبيه :

لا يذكر ابن بشر شيئاً عن الغزوات التي قام بها عبد الله بن سعود إلى العراق في حياة أبيه سعود ، بعد عام ١٢٢٣ هـ . ولكن « دليل الخليج الفارسي » يشير إلى غزوة قام بها عبد الله ضد العراق عام ١٢٢٥ هـ . (١٨١٠ م .) ، وتغلغل فيها الغزاة بعيداً في داخل العراق ، حتى بلغوا مشارف بغداد .

ويردف الدليل إلى ذلك قوله : إن هذه الغزوات بسطت النفوذ الوهابي على عدد كبير من بدو العراق بحيث استطاع سعود أن يرسل عماله عام ١٢٢٧ هـ . (١٨١٢ م .) إلى الهندية ، قرب كربلاء ، لجمع الزكاة من العشائر .